« ديدرو » وعصر الانسكلوبيذيا

صورة اثائر جنود الحرية الفكرية في العصور الحديثة[1]

— ١ —

ان ميزات اي عصر من عصور الانسانية هي اعم من ان تتمثل في شخص فرد من ابناء ذلك العصر . وليس من شك في ان القرن الثامن عشر كان يتسم بسمات هي اعم من ان تنحصر ضمن حدود سجايا « ديدرو » المعروفة عنهُ . ولكننا لسنا نغلو في القول حين نزعم ان « ديدرو » يمثل في شخصهِ نواحي روح ذلك العصر الاساسية خير تمثيل — فلقد كانت اهم ميزات القرن الثامن عشر المأثورة عنهُ هي حب الاستطلاع غير المحدود ، والتعطش الملحّ الى المعرفة ، والشغف الملتهب ببناء الطرائق الفكرية ، والايمان بمصير الانسان ، والرغبة في القضاء على آلام الانسانية ، والثقة بقدرة العلم على تهذيب الطبيعة ، واليقين باستطاعة الانسان الاستغناء عما وراء الطبيعة — هذه كلها من اظهر سجايا ذلك العصر وهي ولا شك تتمثل في شخص « ديدرو » خيراً مما تتمثل في اي مفكر آخر من مفكري ذلك الزمن

وحتى نستطيع ان نفي « ديدرو » حقهُ من التقدير لضطر ان نتناول روح العصر الذي اتمّ فيهِ « ديدرو » اعماله العظيمة — فأصحاب العقول المبتكرة المتوقدة ما كانوا يرجون خيراً او شبه خير من فرنسا سنة ١٧٥٠ ، لان فرنسا كانت قد افلست افلاساً سياسيًّا واقتصاديًّا وساءت حالها الاخلاقية سوءاً ابدع « فولتير » في وصفهِ لما قال عنهُ : « ان الرذيلة في فرنسا قد امسكت بدها في ذلك العهد حتى عن تقديم فروض الغلق للفضيلة » وكانت حياة فرنسا حينئذٍ تقوم على فكرة امتيازات الارستقراطية التي جعلت حقوق التفكير والفهم مسألة من المسائل التي تتطلب الحماية ، وكانت الجرأة في التفكير مساواها المخاطرة لمعاناة السجن او النفي . وايان تلفت الانسان في ذلك الزمن — قبل ظهور فلاسفته — وجد ان اضواءه تشوبها سحب مظلمة من اسباب المصاعب والويلات التي كان يتعرض لها

(١) من مقال للاستاذ هرولد لاسكي استاذ علم السياسة في جامعة لندن

كل صاحب فكر نيّر . الاّ انهُ في خلال الثلاثين سنة التي سبقت الثورة الفرنسية (سنة ١٧٨٩) اشتعلت في ذهن الشعب الفرنسي ونزعته ثورة فكرية تشبهُ في شدة حيويتها ثورة النهضة التي ظهرت قبل ذلك بنحو مائتي سنة — فلقد تفتحت اعين الناس على آمال ومكتشفات جديدة . وفقدت القيود التي كانت تضيق على روح الانسان في ذلك العهد شيئاً من قوتها على التقييد والضغط . وربما كانت تلك الآمال الجديدة لم تتحقق كلها ولا المكتشفات حددت بين دفتيها كل ما اختلج في اذهان اصحابها من طيوف احلامهم وأمانيهم . ولكن من ذا الذي يدرس الآداب الاوربية خلال السنوات العشر الاخيرة من القرن الثامن عشر ولا يقع فيها على اثر من آثار قوة تلك الروح الجديدة التي هبت رياحها من نفسية الشعب الفرنسي في ذلك العهد ؟ وليس من شك في ان تلك الروح قد استجمعت قوتها ثم ضربت ضربتها الاخيرة فاذا ببناء نظم الاستبداد الديني والسياسي في ذلك العصر ينهار على ألاّ تعود له سيادتهُ الماضية الكاذبة . واذا حقوق الانسان في ان يكون هو لا سواه ، سيّد نفسه ، قد اعلن اعلاناً لا تطيق الصبر على نكرانها اية قوة كانت ، واذا حق العقل في ان يتبع الهاماته ومكتشفاته اينما انتهت به ، وحرية التفكير للتفكير في اي لون من الوانه ، كلُّ هذه واشباهها من اسباب حرية النفس الانسانية قد ثبتت سيادتها نثبتاً تركخصوم الحرية منذ ذلك العصر مدافعين عن معاقل استبدادهم بعد ان كانوا مهاجمين . وفي الجملة فقد اتى على العالم في ذلك العصر فصل ربيع من التجديد بعد شتاء طويل من جمود الظلم والاستبداد

— ٢ —

اما « ديدرو » فيحتلّ في تلك الثورة الفكرية المباركة منزلة اولية لا تنكر

ولد سنة ١٧١٣ من ابوين من الطبقة المتوسطة وربي في احضان اليسوعيين على ان يخرج زهرة يانعة في رياضهم ، ولكن لا الكنيسة التي نشأ فيها ولا القانون الذي مهد له ابوه سبل دراسته ، استمالا نفس « ديدرو » . واما الشيء الذي امتلك عليه قلبهُ وجميع نواحي اعجابه هو حياة باريز . هناك عاش عشرين سنة عيشة الدرس والتحصيل المتواصلين مشهوراً في حيّ الكتاب بنفوره من كل ما يقيّد حريتهُ وبراعته في الابداع ودماثة خلقه حتى قيل ان « ديدرو » لم يعرف له عدوٌّ قط

وكألوف مثلهُ في ذلك الحيّ تزوج وندم واتخذ خليلة او خليلتين لم يتركا في حياته أثراً ما . الاّ ان رسائلهُ الى خليلته الثانية من اهم المصادر لفهم حياته ونفسيته في تلك الحقبة. ولم يترفع عن عمل اي شيء للارتزاق من كتابة مواعظ لليسوعيين الى اقتباس بعض الرسائل الانكليزية وتحويلها . والذي يلوح لنا ان الرجل كان اذا قرأ كتاباً استخلص لبابه ووعاه

في ذهنه وفي قلبه حتى ما يكاد ينسى منهُ شيئاً . وكانت له شهوة دائمة ملحة الى حب الاستطلاع ، فلقد قرأ وبحث في الفلسفة والدين والكيمياء والتشريع والطب والطبيعيات والآداب والدرامة وكان يحسن الكتابة فيها كلها ويجيد في بعضها البحث السيق والتقصي العويص

ولقد كان « ديدرو » في ذلك العهد ممن يثيرون مظان رجال البوليس واللاهوت بصداقته لروسو وكوندياك وسرعة نجدته لكل بائس من رجال القلم ، كان دائم العمل دائم التحدث . ولو انهُ مات سنة ١٧٥٠ لراح مجهول الاسم الا كأحد رجال الفكر الذين كانت تبشر حياتهم بمستقبل نير . فلقد كان وضع ، حتى تلك السنة ، كتابين او ثلاثة في الفلسفة ، ومجلداً آخر يحتوي على قصص مشوقة . اما العمل الذي اعدَّه للمنزلة الاولى في حركة القرن الثامن عشر الفكرية فهو انقطاعه لوضع انسكلوبيديا فرنسية على نسق ما وضعه « تشامبرز » الانجليزي ، فقضى في هذه المهمة عشرين سنة وخرج منهُ كأكبر داعية من دعاة الحرية . أن القلم ليعجز حقا عن تصوير الصفات التي تكشفت عنها نفسية « ديدرو » كمحرّر لتلك الموسوعة . فلقد ابدى من الوان الشجاعة والصبر وصدق العزم والاخلاص ما يندر أن يبدو من اي انسان آخر . وفي سبيل شجاعته النادرة استخفَّ بثورة الكنيسة ضده ، وتهديد الحكومة لهُ . بل لقد استخفَّ في هذا السبيل باقتضاض بعض اصدقائه كفولتير ودالمبر من حوله

ومشروع الموسوعة التي الفها وضعه بحق في طليعة رجال نهضة الفكر في اوربا . ولقد أكرمهُ « فردريك » ملك بروسيا وكاترين امبراطورة روسيا التي كانت تعجب وتكرم كل حركة فكرية تقوم في خارج حدود بلادها . . . وبمتاز « ديدرو » بقدرته على جعل كل انسان عرفه صديقاً محبّاً لهُ ، فقد كانت لهُ القوة الطبيعية الكافية لارضاء جميع الناس وتحبيبه اليهم ، ويكفيك منهُ انهُ كان يرضي الامبراطورة كاترين في بلاطها الملوكي في ذلك العصر كما كان يرضي عين الرضى اي عامل في المصانع التي كان يدخلها مستفسراً عن كيفية ادارة آلاتها

وليس من شك في ان « ديدرو » لم يكن لهُ ما كان « لفولتير » من سلطان على عقول عصره ، ولا هو أبعث الى النهضة الاوربية ما ابعثهُ فيها « روسو » من روح صبغت النهضة الاوربية بصبغتها ، وانما لما مات « ديدرو » سنة ١٧٨٤ كان حقاً على كل فرد ان يقول : — « قد مات اليوم رجل كان يعمل في الطليعة لاصلاح نفسية العصر ، وانهُ لولا تنظيم ذلك الرجل لمعركة النهضة ، لما أثمرت ثمارها اليانعة المعروفة »

* * *

وديدرو هو احد اولئك النفر القليل الذين اشتركوا في بناء الفكر الانساني دون

ان يخلفوا من تراثهم الفكري شيئاً يحتذى ، او ان يضعوا طرائق تعرف عنهم وتنسب اليهم

وحتى يستطيع المرء ان يفهم « ديدرو » يجب ان يفهم اولاً خطر الموسوعة التي وضعها ويتبيّن مقدار خصب الملاحظات التي سجلها في كل ناحية من نواحي الفلسفة تقريباً . و« ديدرو » لم يكن فيلسوفاً عظيماً ولكنهُ صرف جل عنايته الى الفلسفة ، ولم يكن نقاداً ولكنهُ اثر في الرواية وفي المسرح وفي فكرة الفن ايضاً — وبالرغم من انهُ لم يضع شيئاً مبتكراً في النقد اللاهوتي الاّ ان الكتبة اعتبرتهُ اقوى اعدائها بعد « فولتير » وقد كانت آراؤه السياسية خير ما كان شائعاً في عصره منها

ويصعب ان تجد اليوم اثراً واحداً من آثار « ديدرو » الادبية يصلح ليتداوله الانسان في هذا العصر باكمله ، ولكن كل هذا لا ينفي مقدار خصب عقله وغناهُ حتى ان المرء ليستطيع ان يستخلص من آثار قلمه مجموعة ممتازة لا تقلّ في جودة مادتها عن اية مجموعة اخرى من منتجات الفكر الحديث

ولقد وضعت موسوعات عدة قبل ان يضع « ديدرو » موسوعته هو ، وخاصة تلك المجلدات التي نبأ بها « بيل » Bayle عن مجيء عصر النهضة الفكرية . ولكن واحدة من تلك الموسوعات التي وضعت قبل « ديدرو » او بعده لم تحز ما حازته موسوعته من الخطر والشأن . وليست تنحصر خطورتها في نحو المواضيع التي حوتها بين دفتيها من مثل موضوع « كوني » الذي يعد فاتحة عصر جديد في درس الاقتصاد ، ولا من مثل موضوع « ترجوت » الذي يعتبر مرجعاً في تاريخ علم اللغات . ولا هي تنحصر في ان « ديدرو » كان اول من فكر في اخراج كتاب يعالج فيه جميع نواحي المعارف الانسانية كما كانت تعرف في ذلك العصر ، وانما خطورتها انما هي في النزعة التي كتبت بها . وفوق كل ما ذكر فلقد ادرك « ديدرو » في موسوعته كنه ما وصلت اليه جهود الانسان ، تلك الجهود التي غابت اهميتها الاجتماعية عن فطنة سائر من تقدمهُ من الباحثين

وموسوعة « ديدرو » هي انذار صارخ ارسله فريق من الناس يسعى لتحرير نفسه من قيود حكم مستبد وفلسفة دينية تعوق الارتقاء العقلي

وهي دعوة للمطالبة بحقوق الانسان غير المتناهية في حرية البحث ، والاصرار على ان العقل — لا الايمان — والفهم لا العقائد ، هما سبيل الحقيقة ؛ وليس من شك في ان موسوعة « ديدرو » لها اخطاؤها الكثيرة ، ففيها كثير من قلة التدقيق . وشيء من عدم الجهر بالحقيقة خوفاً من المراقبة . وغير قليل من النقل والانتحال . ولكن الانسان لا يقرأ صفحاتها الاّ ويشعر بان فيها كرامة عقل يسعى لاثبات حقوقه بحماسة أخّاذة . هنا نتيجة

تلك الثورة الفكرية التي في سيرها المجيد من ديكارت الى نيوتن وضعت المشاهدة محل الفرض، وتصورت الكون وحدة يمكن تعليلها تعليلاً معقولاً من غير توسط خارق للطبيعة . انها نقلت مركز العناية العقلية من القوى التي لا تفهم الى القوى التي تخضعها وتسيطر عليها . وجعلت العلم نتيجة للاختبار المحقق والبحث المنظم لا الاستلهام والتصوف والتحكم . فالانسكلوبيذيا تسجل انتصار الروح العلمية . وفي ذلك النصر الباهر كان ديدرو المنظم والقائد

والروح الاجتماعية التي تسود الموسوعة ليست تقص شيئاً في خطورتها عن خطورة الروح العلمية التي مرَّ ذكرها فيها . فجدة النزعة التي وسمت بها تلك الموسوعة هي في صميمها اعظم مما قد تبدو في ظواهرها ، ففي هذا العمل لا في سواه ، يمس الانسان لاول ما يمس تفسيراً شائعاً لنظرية « باكون » التي تقرر ان زيادة المعرفة العلمية هي قياس غلبة الانسان على بيئته ، وأن فهم العلم على انه سبيل اسعاد الناس يجب ألاَّ تشوبهُ شائبة واحدة من عرائيل القيود والتحفظات المعرقلة للارتقاء . والقارىء يتلمس في موسوعة «ديدرو» اصرار واضعها على ضرورة سعي الناس لمنع شقاء الناس لا لتقليله فقط، كما انهُ يشدّد على ضرورة عناية المرء بهذه الحياة الحاضرة ورفض جعل الحياة الاخرى وحدها حافزاً للجهاد

ومن المدهش حقاً ان يصرف « ديدرو » كل ذلك القدر الذي صرفهُ من الدقة والتفصيل حول الفنون الصناعية . وهو يبدو هنا مبتدعاً مبتكراً ادرك بصيرته شأن تطبيق العلم على الصناعة ومقدار اثر جهود الانسان العلمية في حياته الاجتماعية

و« ديدرو » لم يغفل يتلمس في كل ما كتب اصلاحاً لنظم التشريع القديمة ، وقد كانت له آراء عصرية حول التنظيم الاقتصادي فهاجم الامتيازات وعدم المساواة بشدة لا تقل عن الشدة التي هوجمت بها سنة ١٧٨٩ « سنة شبوب الثورة الفرنسية »

اما رأيهُ في نظام الحكم فقد كان متأثراً دائماً بما كتبهُ مرة عن ان « الحكومة الفاضلة هي التي تجعل مصلحة العامل غاية لها ، لانهُ اذا شقي العمال شقيت معهم الامة »

والمرجَّح ان احداً لا يقلب صفحات تلك الموسوعة اليوم سوى جماعة الاخصائيين . ولكن لها حق الادعاء بأنها احيت روح الحرية والنقد كجزء من ميراث الانسانية الخالد . وذلك اللهب البسيط الذي اشعلتهُ عصور النهضة في القرون الوسطى والذي سنتهُ ايدي رجال امثال « رابيليه » و « مونتاني » و « بل » — ذلك اللهب عينه انتقل بين ايدي « ديدرو » الى نار آكلة التهمت في شدتها غابة كثيفة من الجهل والظلام كان الناس يتخبطون فيها فلا يسترشدون في داخلها الى غاية تعرف

ومبادىء تلك الموسوعة ونظرياتها لها خطرها عند الناس ، لا من حيث ان اعدادها

سمحوا بنشرها على انها تمهد لمبادئهم ثم عجزوا عن مواجهته ، ولكن لانها تكشف للناس عن عجز الارتقاء ، وعن ان العالم في ذاته كاف لتغير ذاته ، ولأنها تعزز حقوق الطرائق العلمية التي لا تطاول ، وتقرر مع تلك الحقوق ضرورة اتباع وواجب الانسان للرضوخ امام مطالب العقل ، وان البحث للبحث ، لا للفائدة والمنفعة الشخصية ، هو مصدر عزاء وسعادة ، وان حروب الفتح ترجع بالحرمان القهقرى ، وانهُ من المستحيل على العقل البشري ان يقبل التحكمات الدينية كمقياس للحقائق

هذه هي مبادىء النظريات في موسوعة «ديدرو» وهي مبادىء ونظريات سائغة عادية يتنا . ولكن يجب ألاّ ننسى انها انما هي شائعة اليوم بيننا لان « ديدرو » وجماعتهُ كانوا على اتم استعداد للتضحية بحريتهم في سبيل اذاعتها . ولقد عدّ «ديدرو» جيشاً لتعزيز حقوق الفكر في استقلال انتصاراته ، وجمع تحت لوائه كل امرىء من ابناء عصره ممن تحترم اليوم اعمالهم . فليس بالشيء الوهمي ان نشبه من اشتركوا في وضع الموسوعة بجيش في الميدان وان ننسب الى القائد الذي تولّى الاشراف على تلك المعركة فضل الانتصار والغلبة[1]

— ٣ —

ومهما يكن من شيء فليست عظمة « ديدرو » فيما قام بهِ من الاعمال وانما هي في الرجل الذي كانهُ « ديدرو » . وما من انسان عرفهُ في رسائله او في رسائل اصدقائه الاّ احبّهُ . فطبيعة «ديدرو» الطيبة وجرأته وفطنته واخلاصه لعمله وتهالكه على السعي هذه السجايا وأمثالها من صفات الرجل تربط المرء بهِ رباطاً لا تفكّ لهُ عرى

وليس من شك في ان « ديدرو » كانت تنقصه رقة المزاج ورقة المعاملة ، وكثيراً ما كانت تزل بهِ حرارته واندفاعه الى غير مستواه . وهو ممن يرضخون للغريزة بسهولة ، شديد الاهتمام بنفسه ، سريع الانحراف الى الخشونة التي كانت سجية بارزة من سجايا عصره . الاّ انهُ كان ، كما قال فولتير عنهُ « يحمل في نفسه شيئاً سقراطيّاً » فكان يبعث في كل شيء بمسّهُ قوة وثابة ، وكان يضع الحقيقة فوق كل شيء آخر . ولم يبد من انسان ما قط ما بدا من « ديدرو » من شهوة ملتهبة الى المعرفة . ففي كل شيء بحثه كانت غايته الوصول الى قرارة ذلك الشيء . وكان له من قوة التأثير في الغير وحفزهم الى بذل اقصى ما يمكنهم بذله في مساعيهم ما لا يضارعهُ فيها ستة رجال من اقطاب تاريخ الفكر الانساني »

وكان يجد السعادة في كل مكان في الاشياء البسيطة وفي الناس البسطاء ، وكان يحافظ

(١) لو لم يكن لديدرو من اثر سوى اتمام الموسوعة لكفاه هذا فخراً واثراً في التاريخ ولكن له آثار في الاجتماع والفلسفة والفن سوف نجعلها موضوع مقال مستقل في جزء تال

على كرامة اخوانه في الانسانية محافظة تامة، وكان يبغض اشد البغض كلَّ ما من شأنه ان يؤدي الى القسوة او الغموض او الى الجهل ، وقد ساعد على تقدم المعارف بكل ما امكنهُ قواه من المساعدة

و «ديدرو» كان هو هو اينما نزل ، سواء كان في المصنع يتفهم من العمال سر مهنهم ، ام في صالون مدام نيكر ، ام في حضرة امبراطورة روسيا حيث تشتدُّ به اسباب الجدال وتلجئهُ حاجة الاقناع الى ضرب جلالتها على ركبتها ، او في مسقط رأسه يحتمياً بأبيه فلا يملك دموعه من الجريان اذ يضم اباه الى صدره . وفي سجنه حيث اعتاد روسو ان يتردد عليه . ان « ديدرو » في كل تلك الحالات وفي غيرها ، هو هو شدة تعطش الى الحياة والآراء وشدة تحبب للاذى وشدة كرم . ولقد قال باكون « ان النفس كلما كوم معدنها زادت امامها اسباب الرفق والرحمة ». واولئك الناس الذين قابلوا «ديدرو» لاول ما قابلوه في حياتهم لا بدَّ انهم وجدوا فيه من اسباب الفتنة ما اعتاد شباب اثينا ان يجدوه في سقراط المعلم الاول

و «ديدرو » هو من اوائل رجال القلم في تاريخ فرنسا ممن اعتزُّوا بالطبقة التي خرجوا منها وقط لم يسعوا ليعلوا بأنفسهم عن مستواها . وكان يتجلى حتى ايامه الاخيرة بالصفات المعروفة عن طبقته المتوسطة . ويعزى نجاحهُ في الحياة الى حبه للعمل ، وكان يحكم على النظم الاجتماعية او لها حسب اثرها في الطبقة التي كان هو منها . وليس من شك في ان المورد الذي صدرت عنهُ فلسفته انما كان هو مورد حاجات تلك الطبقة وانتصار مبادئه لم تكن تعني اكثر من سد تلك الحاجات . والمرء الذي يدرس مبادىء ذلك الرجل العظيم لا يخطىء فيها الدعوة الى الغاء الامتيازات والى انتصار الحرية المدنية ، والحكومة التمثيلية ، وتطبيق العلم على الحياة العملية ، والوطنية التي تضع غايات السلام فوق ضرورات الحروب ، وغير هذا من حاجات الشعب مما كان يتسمعها من افواه ابيه والخاصة من اصدقائه لما كانوا يجتمعون في منازلهم ، يهمسون بها همساً ولا يجرؤون على البوح بها . ولكن الرجل الفذ « ديدرو » رأى في هذه المبادىء والنظريات ما لم يستطع غيرهُ رؤيتهُ فيها . ولما شبَّ وهمَّ بالمناداة بها ألبسها من قوة معارفه قوة فعالة مؤثرة — وكما ان « روسو » عبر عن آمال العامة التي كانت تختلج في نفوسهم ولكنها تتجمد على افواههم ، فكذلك قد عبر « ديدرو » عن اماني طبقة اصحاب الاملاك الصغيرة الذين يشقون بالعمل ولكنهم لا يصبحون اغنياء قط

وتلك الاماني التي عبر عنها « ديدرو » ظهرت على مسرح السلطان والنفوذ عقب الثورة

الفرنسية ، وعلى ذلك « فديدرو » لهُ فخر العمل بكل قواه في سبيل وضع الاساس الفلسفي لحكومة الطبقة المتوسطة الصناعية

***

ولقد وضعت حول مشاكل الاجتماع واثر الصناعة فيها مؤلفات لا يستطاع مقارنتها بما وضعهُ « ديدرو » في هذا الشأن . كما انهُ قد وجد من الكتّاب من كان لروعة اسلوبهم اثر قوي في الاجيال التي اتت بعدهم فظلت اساليبهم تغري الناس بما تركوا وراءهم من آثار بالرغم من ان آراءهم قدمت والاغراض التي كانوا ينادون بها بليت . و « ديدرو » ليس له شيء من روعة تلك الاساليب المشوّقة المغرية ، بل يوجد من المفكرين امثال ديكارت ونيوتن وداروين من اذاعوا مبادىء هي من صميم الحقيقة حتى لقد غيرت الاساس الذي بُنيَ عليهِ معارف الانسان . وشيء من هذا او ما يشبههُ لا يمكن ان يُستقصَى في كل ما ترك « ديدرو » من آثار

ولكن بالرغم من هذا كله فاسم « ديدرو » حيٌّ لا يموت . وينسب الفضل في خلود اسم ذلك الرجل الى ان ذهنهُ قد بعث الى عصره باسباب الخصب والنماء . ولان شخصيته القوية جعلتهُ زعيماً بارزاً في المعارك الرئيسية التي جرت في سبيل الحرية ، وهي معارك لا يسع المؤرخ العصري ان يغفل اثرها

و « ديدرو » لم يحظ بغير القليل من اسباب المكافأة التي يناطها عادة الرجال الذين ينجحون في الحياة . فالاكاديمية لم تكافئهُ باكثر من اعفائه من الاشتراك ، وحتى ايامه الاخيرة كان « ديدرو » يحتاج الى الجهد في العمل حتى يحصل على قوته اليومي ، الا انهُ كان يعيش دائماً في عالم خاص به من المبادىء السامية ، وكان يشعر في نفسه بفرح اشتراكه فيما يدعوه « هيني » حرب تحرير الانسانية . والشيء الذي كان يشغلهُ في الحياة هو تطلعهُ الى الخلود الذي تقدره الاجيال المقبلة حين تعترف للذين اتوا من قبل بانهم قد خدموا الاجيال بعدهم اصدق خدمة

وحتى اذا اعتبرنا هذه الاماني مجرد احلام ، وما هي باحلام ، فانها على كل حال — كما قال « ديدرو » — « احلام قد امتدت بامتداد حياتي وجعلتني مأخوذاً بشعوبها طيلة ايام تلك الحياة »

والواقع ان تلك الاماني لم تكن احلاماً خلابة ، ففي حياته سمع « ديدرو » انغام ثناء ابناء عصره عليهِ وموسيقى تلك الانغام ما زال تتردد اصداؤها في آذان الاجيال الحاضرة وحسب الرجل بذلك خلود اسم

يوسف مُنّا